بسم الله الرحمن الرحيم

الاثنين 8/7/2013 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة التفسير

سورة الكهف (17)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك.. وبعد:

فنحن في تفسير آية من سورة الكهف.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50].

في هذه الآية خمس وقفات جديرة بأن نقف عليها:

1- الوقفة الأولى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ .

هل يجوز السجود لغير الله تعالى؟!

السجود لغة: هو التعظيم والانقياد والطاعة.

واصطلاحاً: وضع الجبهة أو شيء منها على الأرض، وكمال السجود بالصلاة أن يسجد أحدنا على سبعة أعظم لله تعالى.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ عَلَى الجَبْهَةِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ وَاليَدَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَأَطْرَافِ القَدَمَيْنِ وَلاَ نَكْفِتَ الثِّيَابَ وَالشَّعَرَ**» [البخاري ومسلم].

ويصح السجود بوضع شيء من الجبهة على الأرض لكن كماله بهذه السبعة.

السجود لله تعالى: هو سجود عبادة وتذلل وانقياد وطاعة.

أجمع العلماء: أنه لا يجوز السجود لأحد غير الله تعالى على سبيل العبادة والانقياد والطاعة، أما السجود لغيره على سبيل الاحترام والتوقير فقد كان قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم موجوداً فلما جاء رسول الله حرم ذلك.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، قَالَ: **لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟!» قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ، فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَا تَفْعَلُوا، فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا...»** [ابن ماجه وابن حبان].

قال العلماء في هذه الآية: يعني اسجدوا أي إلى الجهة التي يقف بها آدم، فكما تقول صل للكعبة أي مستقبلاً الكعبة ومتجهاً إليها فكذلك هنا اسجد أي متجهاً.

وقيل: إن معنى السجود هو المعنى اللغوي أي انقادوا لآدم.

2- الوقفة الثانية: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾.

ظاهر الآية أن الخطاب للملائكة فما بال إبليس قد امتنع وعوتب بالامتناع وهو من الجن بصريح الآية؟!

قال المفسرون: قوله تعالى: وإذ قلنا للملائكة أي وسائر المخلوقات معهم، وإنما خص أشرف المخلوقات بالذكر كناية عن جميعهم، فكما لو كنت في مجلس يحضر فيه كبير القوم وأصغرهم ففي كلمتك وخطابك تخاطب كبير القوم، لكن المراد هو وكل السامعين.

وكما في آية يخاطب الله تعالى فيها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: 1] فالمخاطب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن المراد هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكل المسلمين من ورائه.

3- الوقفة الثالثة: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾.

أصل الفسوق الخروج، يقال: فسق القطار عن سكته؛ أي خرج عن ممشاه.

فلما خرج إبليس عن أوامر الله تعالى لعنه الله وطرده من الجنة وجعله ملعوناً رجيماً إلى يوم القيامة.

فليخشَ امرؤٌ مسلم أن يفسق عن أمر ربه، وأن يأمره الله تعالى بأمر فيتركه أو أن ينهاه الله تعالى عن نهي فيفعله، فمن فعل ذلك فقد فسق عن أمر ربه، وما صار إبليس إبليساً إلا لأنه فسق عن أمر ربه.

تضع الذنوبَ على الذنوب وترتجي درجَ الجنان وطيبَ عيش العابد
ونسيتَ أن الله أخرج آدماً منها إلى الدنيا بذنب واحد

من الممكن أن نخطئ أو تزل أقدامنا فلا نمتثل الأمر أو لا نترك النهي، لكن المطلوب منا هو عدم الإصرار، فهذه هي مشكلة إبليس فإن سيدنا آدم وإبليس عصيا ربهما لكن آدم استغفر وندم وتاب وأقلع واعتذر وطلب الإقالة من حضرة الله تعالى، أما إبليس فظل مصراً على ذنبه ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، فإذا أذنبت فكن من وراء سيدنا آدم، ولا يذنبن أحدنا ذنباً ويصر على ذنبه، ويتحدى بذنبه، ويجاهر بذنبه أمام الخلائق.

أحياناً يتعامل أحدنا معاملات ربوية ويفلسف لذلك ويفسر لها كما فعل إبليس بتبريره لمعصيته.

قد يبرر علاقتَه غير الشرعية بفتاة على بأنها صداقة وزمالة وانفتاح ولباقة وعلاقات اجتماعية واسعة وأفق جديد، والحقيقة أنها معصية.

4- الوقفة الرابعة: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ .

إن لإبليس أعوان وأتباع فلتحذر أن تتخذ أتباعه وأولياءه مناصرين تحبهم ويحبونك.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: 1- 6].

فالله تعالى يعلمنا كيف نستعيذ من الشيطان الرجيم وينبهنا بأن هناك شياطين وأبالسة من الجن والإنس، وسورة الناس تستعيذ من شيطان الإنس والجن.

فلعل إبليس أن يكون مظهره غير جميل وغير محبب، وكل الأفلام والرسومات والصور تظهر صورته بذلك؛ لكن المشكلة أن يكون إبليس أو أحد ذريته يأتيك بمظهر محترم، وجميل، وأنيق، ويحمل شهادات عالية، ويملك مالاً، وجاهاً... وهو يريد أن يوسوس لك عقوق الوالدين، والعلاقات المحرمة، والمال الحرام، وترك الفرائض، وأن يدع شكاً في عقيدتك!!

أَوْلِيَاءَ: أصل الولاية المناصرة، فلنحذر أن نناصر أحداً من أبالسة الإنس، وهذا أمر مهم تجدونني أكررْ، فكلمة السر لصلاح الصالحين وفساد الفاسدين الصاحب.

فليحذر أحدنا ممن يصاحب، واجتهد أن يكون صاحبك أحسن منك في علاقته مع الله؛ لأنه يأخذ بيدك باتجاه الخير، أما من يصاحب إنساناً أسوأ منه أو أقل أو من ذرية إبليس فقد يرديه إلى مكان خطير جداً.

يكاد لا يمر علي يوم إلا وتأتيني مشكلة والعلة فيها الصاحب.

إذا شعرتُ أن علاقة ابني مع إخوته ووالديه متغيرة، وعبادته متغيرة، فالسبب هو والحل هو الصاحب.

زوجك كان انتباهه وطاعته وأدبه وأخلاقه عالية، ومنذ فترة ترينه في شرود شديد، فالسبب والحل هو الصاحب.

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ**» [مسلم].

5- الوقفة الخامسة: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

هم: أي إبليس وذريته وأتباعه وأشياعه.

من المفيد أن يعرف أحدنا خطط عدوه في إغوائه وإضلاله وإبعاده عن الطاعات؛ لأجل قطع الطريق عليه من أوله.

حيل الشيطان مع الإنسان في اتجاهين:

أ. الصَدُّ عن الطاعة، وله بذلك ستة حبال:

1. يأمره بتركها واهماً إياه بأنها تَخَلُّفٌ، أو أن الدِّين ليس بالصلاة بل بالمعاملة والأخلاق.
2. فإن لم يأتمر أمره بتسويفها.
3. فإن لم يأتمر أمره بتعجيلها والسرعة فيها.
4. فإن لم يأتمر أمره بإحسانها مراءاة للناس، وإن دخل المراء أحبط العمل.
5. فإن لم يأتمر أمره بالعجب فيها، وإن دخل العجب أحبط العمل.

6. فإن لم يأتمر قال له: ما حاجة الله بصلاتك؟! فإن الأمر مكتوب من قبل أن تخلق فيأخذ بتشكيكه.

عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ قَالَ: **يَا رَسُولَ اللهِ بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الْآنَ، فِيمَا الْعَمَلُ الْيَوْمَ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ» قَالَ: فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ زُهَيْرٌ: ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو الزُّبَيْرِ بِشَيْءٍ لَمْ أَفْهَمْهُ، فَسَأَلْتُ: مَا قَالَ؟ فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ»** [مسلم].

ب. يوقعك بمعصية وله بذلك عشرة حبال:

1. يأمرك باستماع حديث المعصية، وقد نهينا عن هذا الاستماع بنص القرآن الكريم ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: 140].

قد يضطر أحدنا ليكون بمكان معصية، لكن قد يكون غير مضطر فما الذي أجلسك معهم؟!

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: 22].

إن هذه الجلسات وكثرة الاختلاط بأهل المعصية يورث مودة ومحبة، فلا يأتي الحب إلا من الاستماع، والنظر، والمجالسة، والمؤانسة ولو علق قلبك بأحد من أعداء الله ورسوله لكان ضعفاً في الإيمان.

لا تجلس في مكان تُلفَظ فيه كلمات تغضب الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم، أو كلمات فيها معاداة لهذا الدين، وانسحب من ذلك المجلس وبيّن لهم أن هذا الكلام يؤثر في العقيدة.

قد يخجل أحدنا أن يظهر بلباس أهل الطاعة مع أن أهل المعصية يظهرون بلا حياء.

قال محمد إقبال:

كل من أهمل ذاتيته ... فهو أولى الناس طرا بالفناء

لمن يرى في الدهر شخصيته ... كل من قلد عيش الغرباء

2. فإن استجاب له أمره بالنظر إليها، متحججاً له بأن هذا لا يؤثر عليه، وليس من المستحسن أن يجهل المسلم ما حوله، بل يجب عليه أن يعلم كل شيء.

3. فإن استجاب له أمره بمجالسة أهلها.

4. فإن استجاب له أمره بتمنيها، وتمني الحرام حرام وتمني الطاعة طاعة.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً...**» [البخاري].

5. فإن استجاب لأمره أمره بفعلها.

6. فإن استجاب لأمره أمره بالمجاهرة فيها.

7. فإن استجاب لأمره أمره باستخفافها.

قال الصالحون: لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر إلى عظم من خالفت.

8. فإن استجاب لأمره أمره بالإصرار عليها.

9. فإن استجاب له أمره بالدعوة إليها، وفي هذا الحال صار من أولياء إبليس وذريته ومن دون أجرة.

10. فإن استجاب لأمره أمره بتحدي الله تعالى بها، وهنا صار صاحبها كافراً.

فإذا وصل إلى هنا صار ممتثلاً بقوله تعالى ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: 16-17].

أما وقد علمت هذه الحبال فانتبه واقطع على إبليس الطريق من أوله ولا تمتثل له.

ولأعتصم من الشيطان الرجيم هناك ثلاثة طرق:

1- **الاستعانة بالله تعالى:** فما استطعت التضرع إلى الله تعالى بالدعاء والذكر بأن يعصمك من الشيطان الرجيم فافعل.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: **خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ عَجَبًا... وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَدِ احْتَوَشَتْهُ الشَّيَاطِينُ، فَجَاءَهُ ذِكْرُ اللَّهِ فَخَلَّصَهُ مِنْهُمْ...**» [الطبراني].

فالذكر يبعد عنك وساوس الشيطان.

قد يسألني شاب غير قادر على الزواج مطلقاً إني أرى أموراً لا يرضاها الله، وأخاف أن أقع في الحرام، فما الحل، وأنا أشعر بالفوران؟

الحل والعلاج هو ذكر الله تعالى ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69] فنار الشهوة التي تغلي في داخلك يطفئها ذكر الله تعالى فاجعل لنفسك أوراداً من الذكر.

اعمدوا في سجودكم متضرعين إلى الله أن يصرف عنكم إبليس وأعوانه وأن يعصمكم منه.

2- **صحبة الصالحين**: فما استطعتم أن تكونوا مع الصالحين فافعلوا.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ**» [الإمام أحمد وأبو داود والنسائي].

الشيطان ذئب الإنسان فما استطعت أن تبقى مع الصالحين فابقى.

مرت علي أوقات كثيرة كنت أحاضر كل يوم بدرس أو اثنين أو ثلاثة وهدفي هو الجلوس مع الصالحين؛ لأنني أخاف ما لو ابتعدت عنهم أن يفترسني الشيطان.

قال بعض أهل التربية الروحية: إذا كنت جالساً مع الشيخ فهو محمود، وإن لم تكن مع الشيخ فافعل رابطة معه بأن تتخيل أنك جالس معه، فإن لهذا التخيل أثر بحجز بعض الناس عن المعاصي والأخطاء.

فأهل التربية الروحية لأجل أن يضمنوا لهذا المريد صحبة الصالحين، وامتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119] قالوا: ما استطعت أن تكون معهم فكن، فإن لم تستطع أن تكون معهم بسبب بعد أو سفر أو عمل فتخيل أنك معهم.

3- **تقليل الشهوات والمباحات**: فقلل الطعام، والشراب، والنوم، واللباس، والضحك، والكلام... وكل ذلك مباح لكن عليك أن لا تستنفذ كل الحلال فإنك إن استنفذته اتجهت نحو الحرام.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

والحمد لله رب العالمين.